الباب الثالث

الفصل الأول

فى الشعر

انتحال الشعر

نشط أدباء الشيعة نشاطا عظيما فى وضع الشعر الذى يرفع من شأنهم ويقوى من دعائم مذهبهم ، ويحط من شأن أعدائهم . وأجروا هذا الشعر على ألسنة أئمتهم وعلى ألسنة قوم آخرين . وقد كثر ذلك الشعر حتى شغل مكانا بينا فى الأدب العربى . وكانوا أحيانا يزيدون فى قصائد بعض الشعراء ما يؤيد رأيهم ويدعم حجتهم فى الخلافة وحق علىّ فيها . وقد ظهر هذا الانتحال فى مظاهر مختلفة .

(١) شعر أبى طالب

لقد وضعوا كثيرا من القصائد ونسبوها إلى أبى طالب ليثبتوا بذلك إسلامه ، وحسن بلائه فى الدين ودفاعه عن النبى وحمايته له ، وجهاده فى سبيل الإسلام ، فمما ينسب إليه قوله :

ولما رأيتُ القَوْمَ لا وُدَّ فيهم ... وقد قَطَّعوا كلَّ العُرَى والوسائلِ

وقد صارَحُونا بالعداوةِ والأذَى ... وقد طَاوَعُوا أمرَ العدُوِّ المزايلِ

ومنها :

كذَبْتَمْ وبيتِ الله نُبزى محمدا ولما نطاعنْ دونهُ ونُناضِلِ
ونسلُمه حتى نُصَرَّع حولَه ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ
وينهضَ قومٌ بالحديدِ إليكمُ
نهوضَ الرَّوَايا[1] تحتَ ذاتِ الصّلاصلِ[2]

ومنها :

وأبيضَ[3] يُستَسقَى الغمامُ بوجهِهِ ثمالَ[4] اليتامى عصمةً للأراملِ
يَلوذُ به الهلاكُ[5] من آل هاشمٍ فهُمْ عندَه فى رَحْمَةٍ وفَواضِلِ
ونحنُ الصَّميمُ من ذُؤابَةِ هاشمٍ وآلِ قُصَيٍّ فى الخُطُوبِ الأوائلِ
وسهمٍ ومخزومٍ تَمالَوا فأَلَّبُوا عَلَيْنَا العِدَا من كلِّ طَمْلٍ وخاملِ
فعبدَ منافٍ أنتمُ خيرُ قومِكم فلا تُشرِكُوا فى أَمْرِكُم كلَّ واغلِ

وهى طويلة أورد منها ابن هشام أربعة وتسعين بيتا ثم قال : « هذا ما صح لى من هذه القصيدة . وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » .

ومثال آخر مما ينسب إلى أبى طالب .

واللهِ لن يَصِلوا إليك بجمْعِهم حتى أُوَسَّدَ فى الترابِ دَفينا
فاصدَعْ بأمرِكَ ما عليكَ غضاضةٌ وانْشُرْ بذَاكَ وقَرَّ مِنكَ عُيونا

(١) جمع راوية وهو البعير أو البغل .
(٢) وذات الصلاصل هى المزادة التى ينقل فيها الماء ، والصلاصل جمع صلصلة بضم الصادين وهى بقية الماء فى الاداوة .
(٣) كريم (٤) العماد . (٥) الفقراء والصعاليك .

ودعَوْتَنى وزَعمْتَ أَنَّكَ ناصِحٌ فلَقَدْ صَدَقْتَ وكُنْتَ قَبْلُ أَمِينا
وعَرَضْتَ دِينا قد عَرَفْتُ بأَنَّهُ مِنْ خَـــيْرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ دِينا
لولا المخافةُ أنْ يكونَ مَعرةً لَوَجَدْتَنى سَمْحا بذاكَ أَمِينا

فى هذا الشعر تكلف ظاهر وتصنع واضح . ترى فيه أبا طالب يظهر استعداده للموت فى سبيل الرسول ويأمره بالاستمرار فى نشر الدين فى غير خوف ولا وجل ويعترف له بالصدق فى دعواه ويقر بأن الإسلام من خير أديان البرية دينا . هو يعترف بذلك كله ويؤمن به ولكنه لا يعتنق الإسلام خشية العار . وأى عار هذا الذى خشيه أبو طالب ولم يخشه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وغير هؤلاء من عظماء قريش وغير قريش . لو أن أبا طالب آمن حقا كما يظهر من هذا الشعر ، لجاهر بذلك ولأعلن إسلامه كما أعلنه غيره من قبل ومن بعد . وكيف يخشى المؤمن الناس والله أحق أن يخشاه ؟ ؟

(٢) شعر على

ونظموا شعرا كثيرا ونسبوه إلى الإمام على . ومثال ذلك ما روى من أن معاوية كتب إلى على رسالة جاء فيها .

إن[١] لى فضائل كثيرة ، كان أبى سيدا فى الجاهلية ، وصرت ملكا فى الإسلام ، وأنا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخال المؤمنين وكاتب الوحى . فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أبالفضائل تفتخر علىّ يابن آكلة الأكباد ؟ أكتب إليه يا غلام .

(١) معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٤٨ .

محمدٌ النبيُّ أخي وصِهري ... وحمزةُ سيِّدُ الشهداءِ عمِّي
وجعفرٌ الذي يُضْحِي ويُمْسِي ... يَطيرُ مع الملائكةِ ابنُ أُمِّي
وبنتُ محمدٍ سكني وعرسي ... مشوبٌ لحمُها بدمي ولحمي
وسبْطا أحمدٍ ولداي منها ... فأيكُمُ له سهمٌ كسهمي
سبقْتُكُمُ إلى الإسلامِ طرا ... صغيرا ما بلَغْتُ أوانَ حُلمي
وأوْصاني النبيُّ على اختيارٍ ... ببَيْعتِه غَداةَ غديرِ خُمِّ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لمن يلقَى الإلهَ غداً بظُلْمِ

قال[1] أبو عثمان المازنى : لم يصح عندنا أن على بن أبى طالب عليه السلام تكلم من الشعر بشىء غير هذين البيتين :

تلكم قريشٌ تمنانى لتَقْتُلَنى ... ولا وجَدِّكَ ما بَروا وما ظَفِرُوا
فإن هَلَكْتُ فرهنٌ ذمَّتى لهمُ ... بذاتِ رَوْقينِ[2] لا يَعْفو لها أثَرٌ

وحكى عن يونس النحوى أنه قال : ماصح عندنا ولا بلغنا أنه قال شعرا إلا هذين البيتين . ولكن صاحب الأغانى[3] ذكر فى ترجمة حسان ابن ثابت مايفيد أن عليا كان يقول الشعر . قال « كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش : عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص . فقال قائل لعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه : اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال على رضى الله عنه : إن أذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) معجم الأدباء ج ١٤ ص ٤٦ . (٢) يقال داهية ذات روقين أوذات ودقين إذا كانت عظيمة (٣) الأغانى ج ٤ ص ١٣٧

فعلت ، فقال رجل : يارسول الله ، ائذن لعلىٍ كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا . قال « ليس هناك » أو « ليس عنده ذلك » .

وأقول ربما كان على يقول البيت أو البيتين من حين إلى حين ، ولكنه لم يكن كفؤا للوقوف أمام شعراء المشركين . وإن الذى سأل عليا هجاء المشركين كان يجهل مكانة على فى الشعر وظنه قادرا على الرد على المشركين . ونرى علياً يقول لمن سأله : إن أذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت . فكأنه كان واثقا من أن الرسول لن يأذن له بذلك وقد تحقق ظنه ، فقال النبى عنه « ليس عنده ذلك » .

وعلى كل ، فمن المحقق أن الشعر الذى وصلنا منسوباً لعلىّ ليس له ، وإنما هو من وضع نفر من أدباء الشيعة ، وجل شعره الذى ينسب إليه ، ضعيف الأسلوب والتركيب ، واهى النسج والتأليف ، يدرك المرء لأول وهلة أنه وضع فى عصور متأخرة . فالفرق عظيم بين أسلوب هذا هذا الشعر ، وأسلوب الشعر فى أيام على بن أبى طالب . ولو أنك تأملت فى هذه القصيدة التى مرت بك لأيقنت أنها ليست لعلىّ لا سيما البيتين الأخيرين منها . فعلىّ يقول إن النبى اختاره وصيا على المسلمين من بعده ، ولو أن الأمر كان كما قال لسلم له المسلمون بالخلافة ، ولما نازعه فيها أحد . ولكن قصة غدير خم خرافة أختلقها الشيعة بعد عصر على وأسندوها إلى ابن عباس . « قالوا : روى ابن عباس رضى الله تعالى عنه أن آية « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك » نزلت فى علىّ كرم الله تعالى وجهه حيث أمر سبحانه وتعالى رسوله أن يخبر الناس بولايته فتخوف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : حابى ابن عمه وأن يطعنوا

فى ذلك عليه . فأوحى الله تعالى إليه هذه الآية ، فقال بولايته يوم غديرخُم ، وهو موضع بين مكة والمدينة ، وأخذ بيده فقال عليه الصلاة والسلام : من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . »

لا ريب فى أن هذه أسطورة وضعها الشيعة وتكلفوا فى وضعها شططا ، فرموا النبي بالجبن والخوف وما نعلم عنه ذلك ، لأن سيرته عليه السلام المثل الأعلى فى الشجاعة والإقدام . ولم يكن النبي ليخشى الناس والله أحق أن يخشاه . وكيف يأمر الله رسوله بإخبار الناس بولاية على ويتقاعس النبي عن هذا التبليغ ؟ ؟ ولم لم يذكر الله عليا فى القرآن صراحة إن أراد ولايته ؟ ؟ .

* * *

والشعر المنسوب لعلى مجموع فى ديوان مطبوع ومتداول بين الناس وقد اهتم كثير من أدباء الشيعة بجمعه وطبعه . ولنضرب للقارىء مثلا آخر مما ينسب لعلىّ .

نصرَ الحجارةَ من سفاهةِ رأيهِ ونصرتُ ربَّ محمدٍ بصَوابِ
فصدَدْتُ حينَ تركتهُ متجدِّلاً كالجذعِ بين دَكادِكٍ وروابِي
وعفَفْتُ عن أثوابِه ولو انَّنى كنتُ المقطَّر بَزّنى أثوابِي
لا تحسبَنَّ الله خاذلَ دينهِ ونبيِّه يا معشرَ الأحزَابِ

قال ابن هشام : « وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فى نسبتها لعلى بن أبى طالب » وقد أورد ابن هشام فى سيرته قصائد كثيرة تنسب لعلىّ ثم عقب على كل منها بمثل ما عقب على تلك القصيدة .

ولا أرى بأسا من أن أضع بين يدى القارىء مثلا ثالثا وهو قوله :

مالا يكونُ فلا يكونُ بحيلةٍ أبدا وما هو كائِنٌ سيَكونُ
سيكونُ ماهو كائنٌ فى وقته وأخو الجهالةِ متْعَبٌ محزونُ
يسعَى القوىُّ فلا ينالُ بسعْيِه حظًّا ويدركُ عاجزٌ موهونُ

فهذا كلام فى القدر لم يعرفه المسلمون الأولون إنما عرفوه عند بدء ظهور علم الكلام ، وهذا بعد علىّ بزمن طويل . ثم إن هذا نظم وليس بشعر . هو نظم العلوم الذى لم يظهر إلا فى أيام العباسيين .

وآخر مثل أسوقه للقارىء هو ما روى من أن عليا سمع ناقوسا يضرب فقال لمن معه ، أتدرون ما يقول هذا الناقوس ، قالوا لا ، قال فإنه يقول :

يِلنَا الدْنيَا فاستَهْوْتَنَا فاستَهوْتَنَا وأذَلّتْنَا
واستَلَبْتْنَا لسنا ندرى فيها إلا لَوْ قَد مُتْنَا
واستَبْدلنا دارا تَبْقَى جهلا منا دارا تَفْنَى
يا ابْنَ الدْنيَا زنْ بالدنيا وزنا وزنا وزنا وزنا
يا ابنَ الدُّنيا تَفْنى الدُّنيا قرنا قرنا قرنا قرنا

وهذا أسلوب غريب لم يألفه المسلمون الأولون الذين كانوا يرسلون القول على أشد ما يكون قوة ومتانة وروعة وجلالة . أما هذ الشعر الضعيف المبتذل الذى يكرر فيه صاحبه الألفاظ إلى درجة الإسفاف ، والذى يصنعه صاحبه ويجهد نفسه فى صنعته ، ويتكلفه ويتعب نفسه فى تكلفه فلم يخلق إلا فى أواخر أيام بنى العباس . وقد رتب واضع هذا

الشعر المقدمة ومهد لشعره بقصة صغيرة فجعل عليا يمر ويسمع ناقوسا ويسأل أصدقاءه عما إذا كانوا يعرفون ما يقول هذا الناقوس فيردون عليه بالنفى ، عندئذ يخبرهم بما يجهلون بتلك الأبيات التى قدمناها .

وعلى الجملة فكل ماجاء فى ديوان علىّ بن أبى طالب يمكن أن يرفض كما رفضنا ما تقدم .

(٣) على ألسنة أعدائهم

ووضعوا شعرا كثيرا فيه إعلاء من شأن على وإشادة بشجاعته وإقدامه ، واعتراف بحقه فى الخلافة ، وأجروا هذا الشعر على ألسنة أعدائهم . فمن أمثلة ذلك ما ينسب إلى غلام من بنى ضبة كان يحارب فى صفوف عائشة وهو :

نحن بنى ضبة أعداء على ذاك الذى يعرف قدما بالوصى
وفارس الخيل على عهد النبى ما أنا عن فضل على بالعمى
لكننى أنعى ابن عثمان التقى إن الولى طالبٌ ثأر الولى

فأنت ترى فى هذا الشعر اعترافا صريحا بحق على فى الوصاية ، وإشادة بمزاياه وفضله وما وهبه الله من حميد الصفات وكريم الخلال التى لم يستطع هذا الفتى الذى كان يحارب ضد على أن يتناساها ، بل جاهر بها فى شعره . ولو أن قائل هذا الشعر كان يؤمن بحق على فى الخلافة ويقر بفضله لما حارب ضده مع قوم كانوا يريدون إهلاكه والقضاء عليه والظفر به . ومن هنا تستطيع أن تدرك أن هذا الشعر من وضع الشيعة أنفسهم .

ولنضرب للقارىء مثلا آخر. قيل أن عمرا تعرض لعلى فى يوم من أيام صفين ، فحمل عليه علىّ حملة كاد يقضى عليه ، عندئذ ألقى عمرو بنفسه من على فرسه ورفع ثوبه ، وشغر برجله فبدت عورته فصرف علىّ وجهه عنه ، وقام معفرا بالتراب هاربا على رجليه ، معتصما بصفوفه . فقال معاوية :

ألا للهِ من هفوات عمرو ... يُعاتِبُنِي على تَرْكِي بَرَازِى.[1]
فقدْ لاَقَى أبا حسنٍ عليًّا ... فآب الوائِلىُّ مآبَ خازِى
فلو لم يُبْدِ عورته للاقى ... به ليثا يذلّل كلَّ نَازِى
له كفٌّ كأنَّ براحتَيْها ... منايَا القومِ يخطِفُ خطفَ بَازِى

قيل فغضب عمرو وقال : ما أشد تعظيمك عليًّا فى أمرى هذا . هل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه . أفترى السماء قاطرة لذلك دما .

قال ولكنها تعقبك جبنا . ولما شمت معاوية بعمرو قال عمرو فى ذلك .

معاوىَ لا تَشْمتْ بفارسِ بُهْمةٍ ... لَقِىَ فارسا لا تَعْتَرِيه الفوارسُ
معاوِى إن أبصرتَ فى الخيلِ مُقْبلا ... أبا حسنٍ يَهْوِى دَهَتْكَ الوَسَاوسُ
وأَيْقَنْتَ أنَّ الموتَ حقٌّ وأنه ... لنفسِك إن لم تمضِ فى الركضِ خالسُ
فإنَّك لو لاقَيْته كنتَ بُومةً ... أُتِيحَ لها صقرٌ من الجوِّ آنِسُ
وماذا بقاءُ القومِ بعد اختِباطِه ... وإنَّ أمرأً يلْقَى عليًّا لآيِسُ
دعاك فصَمت دونه الأذنُ هاربا ... بنفسك قد ضاقَتْ عليكَ الأمَالِسُ
وتشْمَت بى أن نالنِى حدُّ رمحِه ... وعَضْعَضنِى نابٌ من الحربِ ناحِسُ

---

(١) روى أن عليا طلب من معاوية أن يخرج لمبارزته فرفض .

أبى اللهُ إلا أنه ليثُ غابةٍ أبو أَشْبُلٍ تُهْدَى إليهِ العرائِسُ

وروى أن معاوية حرض بعض الناس على لقاء علىّ ومبارزته والقضاء عليه ، فقال فى ذلك الوليد بن عقبة :

يقولُ لنا معاويةُ بن حربٍ أما فيكم لواتِرِكم طَلوبُ
يَشدُّ على أبى حسنٍ علىٍّ بأسمرَ لاتُهَجِّنُه الكعوبُ
ليشجُرَه بأبيضَ مَقْضَبِىٍّ ونَقْعُ الحربِ مطردٌ يؤوبُ
فقلتُ له أتلعَبُ يا ابنَ هندٍ كأنَّك بَيْنَنَا رجلٌ غريب
أتُغْرِينَا بِحَيَّةِ بطنِ وادٍ أُتِيحَ له به أَسَـــدٌ مَهِيبُ
بأضعَفَ حيلةٍ منا إذَا مَا لَقِينَاهُ ولُقْيـــاهُ عجِيبُ
سوى عمروٍ وقتْه خُصْيَتَاه وكان لِقَلْبِه منه وجِيبُ
كأنَّ القومَ لما عاينُوه خلال النقْعِ ليس لهم قلوبُ
كعمرو أىْ معاويةَ بن حرب وماظنِّى سَتَلْحَقُه العُيُوبُ
لقـــد نادَاه فى الهيجا علىٌّ فأسمَعَه ولكن لا يُجِيبُ

أما بعد ، فلو أن أحد شعراء الشيعة أراد الإشادة بشجاعة على لما استطاع أن يقول أكثر من هذا ، وليس من المعقول أن يقابل عمرو عليا فيكشف أولها عورته ، عند مايحس بخطر الموت ، لينجو بنفسه من الهلاك المحقق . ليس معقولا أن يصدر هذا من رجل فى مركز عمرو بن العاص . وأبعد من هذا أن يعيره معاوية بتلك الحادثة . وفضلا عما تقدم فإن معاوية لم يكن شاعرا .

وإنك لتجد فى شرح ابن أبى الحديد[1] كثيرا من القصائد التى تنسب إلى معاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والوليد بن عقبة . وكل هذه القصائد فيها مدح كثير للأمام ، وتعظيم لشأنه تعظيما فيه مبالغة وإسراف . وهذا شيء لا ينتظر من قوم عرفوا بشدة بغضهم لعلى ، والإمعان فى الكيد له ، والتقليل من خطره ، والتهوين من أمره ، والحط من شأنه .

وقد أسرف أدباء الشيعة فى وضع مثل هذه القصائد حتى أنهم وضعوا شعرا ونسبوه إلى جبريل . روى أن الناس فى غزوة أحد ، لما تفرق المسلمون عن النبي ووقف على يذود عنه ويرد عادية المشركين ، سمعوا صائحاً يصيح فى السماء بهذا البيت .

لاسَيفَ إلا ذُو الفَقَارِ ولا فتًى إلا عَلِي

فسألوا النبي فقال ذاك جبرائيل[2] .

(٤) كفر ومجون

كما أنهم وضعوا شعرا كثيرا فيه كفر والحاد ، وفيه خلاعة ومجون ونسبوه إلى أعدائهم من خلفاء بنى أمية . ومثال ذلك ماوضعوه على يزيد ابن معاوية .

ليتَ أشياخى ببدر شَهدوا جَزَعَ الخزرج من وقع الأَسَلْ
لأَهلُّوا واستهلُّوا فرحا ثم قالُوا يايزيدُ لاتُشَلْ
لعبتْ هاشمُ بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وَحىٌ نَزَلْ

(١) شرح ابن أبى الحديد ج ٦ ص ١١١ .
(٢) شرح ابن أبى الحديد .

لستُ من خندف إنْ لم انتقمْ من بنى أحمدَ ما كانَ فعلْ

فليس مما يعقل أن يصدر مثل هذا القول من رجل يحكم الناس باسم الدين، ويسيطر عليهم باسم الدين، ويخضعهم باسم الدين. نعم ليس من المعقول أن يطعن يزيد فى الإسلام الذى لولاه لما كانت هناك خلافة ولما كان هناك سلطان. وإذا صدقنا أن يزيد كان فيما بينه وبين نفسه ملحدا، فلا نستطيع أن نصدق أنه يجاهر بهذا ويصرح به فى مثل هذا الشعر.

ومثل آخر أسوقه للقارىء وهو قول أحد أنصار معاوية مخاطبا إياه:

إعطِ عمرا إن عمرا تاركٌ دينَه اليومَ لدنْيَا لم تُحَزْ
إعطه مصرا وزدْه مثلَها إنما مصرٌ لمن عَزَّ وبزْ
إن مصرا لعلى أو لَنا يغْلِبُ اليومَ عليها من عَجَزْ

فى هذا الشعر ترى أن عمرا ترك دينه وباع آخرته بدنياه، وفضل العاجلة على الآجلة، وذلك بنصره معاوية فى حربه ضد على. وليس مما يصدقه العقل أن يجرؤ أحد أتباع معاوية على مخاطبة سيده بمثل هذا القول.

ومثال آخر وهو مما ينسب إلى عمرو بن العاص.

لما تعرَّضتِ الدُّنيا عَرَضْتُ لها بحرصِ نفسِى وفى الأطباعِ أذْهانُ
نفسٌ تعفُّ وأخْرَى الحرصُ يَغْلِبُها والمرءُ يأكلُ تبنا وهو غَرْثانُ
أما علىٌّ فدينٌ ليس يشركه دنْيَا وذاك له دُنْيا وسُلطان
فاخترت من طمَعِى دُنيا على بَصَر ومَا معِى بالذى اختارُ برهانُ

إنى لأعرف ما فيها وأبصرُه ... وفىَّ أيضا لما أهواهُ ألوانُ
لكنَّ نفسِى تُحِبُّ العيشَ فى شرفٍ ... وليسَ يَرضَى بذلِّ العيش إنسانُ

وليس أبعد إلى الذهن من تصديق صدور مثل هذا القول من شخص كعمرو عرف بميله الشديد إلى معاوية وانصرافه عن علىّ . وهو لم يجد فى ذلك كفرا ولا خروجا عن الدين ، ولم ير أنه اختار الدنيا وأعرض عن الآخرة ، بل كان يعتقد أن الخلافة سلطة زمنية يتسلم مقاليدها من يصلح لها من الناس . ومعاوية فى نظره كان صالحا لها ، فإن نصره انتظر منه أحسن الجزاء ، وأعظم العطاء .

ومن[1] أمثلة هذا الشعر ماروى عن الوليد بن يزيد من أنه دعا ذات ليلة بمصحف ، فلما فتحه وافق ورقة فيها « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » فقال : أسجعا سجعا !! علقوه ، ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه ، ثم قال :

أتوعدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ ... فها أنا ذاكَ جبارٌ عنيدُ
إذا لاقيتَ ربَّك يوم حشرٍ ... فقلْ للهِ مَزقنِى الوليدُ

وليس من المعقول أن يصدر هذا من الوليد بن يزيد مع اعترافنا بأنه كان يميل إلى اللهو والمجون ، لأنه هو القائل :

أشهدُ أن الدينَ دين أحمدِ ... فليسَ من خالفَه بمهتدِى
وأنهُ رَسُولُ ربِّ العرشِ ... القادِرِ الفردِ الشديدِ البطش
أرسـله فى خلقِه نذيرًا ... وبالكتابِ واعظا بشيرًا

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٤٩ .

ليظهرَ أنه بذاك الدينَا وقد جعلْنَا قبلُ مُشْرِكِينا

فآثار التكلف ظاهرة على تلك القصة بوضوح وجلاء، فواضعها جعل الوليد يطلب مصحفا لغير ماسبب، ثم يفتحه، وهنا يظهر التصنع الذى يجعل نظر الوليد أول ما يقع على آية «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد...» ثم تدرج صانع هذه الأسطورة، فجعل الوليد يقول: أسجعا سجعا علقوه، ثم جعله يأخذ النبل ويرميه حتى يمزقه، ثم أنطقه بهذا الشعر الذى سقناه. ومهما يكن دين الوليد، فمن المستبعد أن يقول «ها أنا ذاك جبار عنيد».

ومثل آخر نسوقه للقارئ وهو ما حكى عن الوليد من أنه سمع صياحا فسأل عنه فقيل له: هذا من دار هشام يبكيه بناته فقال:

إنى سمعتُ بليلٍ وراءَ المصلى برَنَّهْ
إذا بناتُ هشامٍ يندبْن والدَهُنَّهْ
يَنْدُبن قرما جَليلا قد كان يَعْضُدُهُنَّهْ
أنا المخنَّثُ حقًّا إن لم أنِيكَنَّهُنَّهْ

فظاهر أن البيت الأخير لا يمكن أن يصدر من الوليد. فبنات هشام هن بنات عمه وهو أحق الناس بالمحافظة على أعراضهن.

وقد نسبوا له شعرا ثبت أنه لغيره من شعراء المجون. ومثال ذلك ما رواه صاحب الأغانى «خرج الوليد بن يزيد من مقصورة إلى مقصورة

فإذا هو ببنت له معها حاضنتها فوثب عليها فافترعها ، فقالت له : إنها المجوسية ، قال : اسكتى ثم قال :

من راقبَ الناسَ ماتَ غمًّا وفازَ باللَّـــذةِ الجسورُ

قال أبو الفرج[1] : «وأحسب أنا أن هذا الخبر باطل ، لأن هذا الشعر لسلم الخاسر ، ولم يدرك زمن الوليد» .

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٦١ .

الفصل الثانى

الشعر عند الشيعة

لقد أغنت حركة التشيع الشعر العربى إلى حد كبير . وكان الشعر الناتج عنها شعرا غزيرا قويا . وسبب ذلك أن الموقف الذى وقفه الشيعة من شأنه أن يلهب العاطفة ويهيجها ويثيرها . والعاطفة أكبر دعامة من دعائم الشعر . وكان للشيعة عواطف بارزة قوية يرجع إليها الفضل فى كثرة ما وصلناعنهم من شعر . العاطفة الأولى عاطفة الغضب ، فإنهم اعتقدوا أنهم سلبوا حقهم وغصبوه . واعتدى عليهم ظلما فحنقوا وغضبوا ، ودفعهم الغضب إلى أن يقولوا شعرا فياضا بالحنق والغيظ على هؤلاء المغتصبين .

أما العاطفة الثانية فهى عاطفة الحزن على ما حل بهم من نكبات جسام ، وماوقع عليهم من مصائب عظام طوال حكم الأمويين والعباسيين .

والعاطفة الثالثة عاطفة الحب الشديد لآل البيت ، هذا الحب الذى أخذ يزداد بمرور الأيام ويقوى كلما اشتد اضطهاد الأمويين والعباسيين لأئمتهم .

وإذا نظرنا إلى الشعر عند الشيعة وجدنا أغراضه تنحصر فى الأمور الآتية :

(١) المـــدح

مدح شعراء الشيعة أئمتهم بقصائد رائعة ، أظهروا فيها حبهم وعطفهم لآل البيت ، وإخلاصهم لهم وولاءهم . وقد كان هذا المدح فى أول الأمر ساذجا لا غلو فيه ولا إسراف . ومثال ذلك ما ينسب إلى حجر بن عدى الكندى يمدح عليا يوم الجمل :

يا ربَّنا سلِّمْ لنـــا عليا سلِّمْ لنا المباركَ المُضِيَّا
المؤمنَ الموحِّـــدَ التقيَّا لا خَطِلَ الرأْيِ ولا غَوِيَّا
بل هادياً مُوَفَّقا مَهْدِيَّا واحفَظْهُ ربِّى واحفظ النبيَّا
فيه فقدْ كانَ له وَلِيَّا ثم ارْتَضاهُ بعْدَه وصِيَّا

وربما كان البيتان الأخيران قد أضافهما أحد الشيعة ممن عاشوا بعد عصر على .

ومثل آخر من المدح وهو ما ينسب إلى أحد شعراء الشيعة يذكر نفور قومه إلى على :

نُوَقِّرُه فى فضْـــله ونُجِلُّه وفى اللهِ ما نرجُو وما نَتَوَقَّعُ
دَلَفْنَا بجمع آثروا الحقَّ والهُدى إلى ذِى تُقًى فى نَصْرِه نتَسَرَّعُ
نكافِحُ عنه والسيوفُ شَهيرةٌ تُصَافِحُ أعْنَـاق الرِّجَالِ فتَقْطَعُ

* * *

ثم أخذ الشعراء يغلون فى المديح شيئا فشيئا . ومثال ذلك ما ينسب للفرزدق فى مدح[1] على بن الحسين . روى أن هشاما حج قبل أن يلى

(١) الأغانى جـ ١٤ / ٧٦ .

الخلافة ، فاجتهد أن يستلم الحجر فلم يمكنه ، وجاء على بن الحسين فوقف له الناس وتنحوا حتى استلمه فقال أهل الشام لهشام : من هـذا يا أمير ؟ فقال : لا أعرفه . فقال الفرزدق : لكنى أعرفه ، هذا على بن الحسين وأنشأ يقول :

هذا الذى تعرفُ البطحاء وطأَتَه ... والبيتُ يعرفُه والحلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلِّهمُ ... هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطاهرُ العلمُ
يكاد يمسكه عرفانَ راحتهِ ... ركنُ الحطِيم إذا ما جاءَ يَستلِمُ
إذَا رأَته قريشٌ قالَ قائلها ... إلى مكارِمِ هذا يَنْتهى الكرمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُقى كانوا ذَوى عَدَدٍ ... أو قِيلَ مَن خيرُ أهلِ الأرضِ قيل هُمُ
فليْسَ قولُكَ من هذا بضَائرِهِ ... العربُ تعرِفُ من أنكرتَ والعَجَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ تجهله ... بجده أنبياءُ اللهِ قد خَتمُوا
فى كفِّهِ خيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ ... من كفِّ أروعَ فى عِرنِينِه شَمَمُ
يغْضِى حياءً ويُغْضَى من مَهابَتِهِ ... فلاَ يكَلَّمُ إلا حينَ يبْتَسِمُ

وهى خمسة وعشرون بيتا . وقد شاع بين الناس أنها للفرزدق مع أن من المشكوك فيه أن الفرزدق يرتجل كل هذا فى حضرة هشام ولا يجد من يقوم فى وجهه من الجالسين . وقد ثبت أن الفرزدق قال أربعة أبيات ، ثم أخذ أدباء الشيعة يزيدون عليها ماليس منها حتى بلغت خمسة وعشرين بيتا .

ذكر صاحب[1] الأغانى أن هذين البيتين .

فى كَفِّهِ خيزرانٌ ريحُه عَبِقٌ ... من كفِّ أروعَ فى عرنِينِه شَمَم

(١) الأغانى جـ ١٤ / ٧٤ .

يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مَهابتهِ فلا يُكَلَّمُ إلا حين يَبْتَسِمُ

قالها عمرو بن عبيد الشهير بالحزين فى مدح عبد الله بن عبد الملك ابن مروان ، وكان عبد الله من فتيان بنى أمية وظرفائهم ، وكان حسن الوجه حسن المذهب.

قال أبو الفرج [1] « والناس يروون هذين البيتين للفرزدق فى أبياته التى يمدح بها على بن الحسين بن أبى طالب عليه السلام التى أولها .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وهو غلط ممن رواه ، وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل على ابن الحسين عليهما السلام وله من الفضل المتعالم ما ليس لأحد ».

وقال فى موضع آخر «من الناس من ينسب هذه الأبيات لداود بن سلم فى قثم بن العباس ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد مولى قثم فيه . » ثم أورد صاحب الأغانى الأبيات الآتية :

كم صارخٍ بك من راجٍ وراجيةٍ يرجوكَ يا قثمُ الخيرات يا قثمُ
أى العمائرِ ليستْ فى رِقَابِهم لأوَّلِيَّةِ هَـذَا أولهُ نَعَمُ
فى كفِّهِ خَيْزُرَانٌ ريحهُ عَبِقٌ من كفِّ أروعَ فى عرنينهِ شَمَمُ
يُغضى حياءً ويُغْضَى من مهابته فلا يكلَّم إلا حين يَبْتَسِمُ

قال أبو الفرج « ومما ذكر لنا الصولى عن العلائى عن مهدى بن سابق أن داود بن سلم قال هذه الأبيات الأربعة سوى البيت الأول فى

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ٧٥ .

شعره فى على بن الحسين عليه السلام . وذكر الرياشى عن الأصمعى أن رجلا من العرب يقال له داود وقف لقثم فناداه وقال :

يكادُ يمسِكه عرفان راحته ركنُ الحطيم إذا ماجاء يستلم
كم صارخ بك من راجٍ وراجيةٍ فى الناس يا قثم الخيرات ياقثم

فأمر له بجائزة سنية ، والصحيح أنها لمالك الحزين فى عبدالله بن عبدالملك . وقد غلط ابن عائشة فى إدخاله البيتين فى تلك الأبيات . وأبيات الحزين مؤتلفة[1] منتظمة المعانى متشابهة تنبىء عن نفسها .

* * *

ومن أمثلة المديح قول الكميت :

بل هَوَاى الذى أَجُن وأُبدى لبنى هاشِمٍ فروعِ[2] الانَامِ
للقَريبينَ من نَدًى والبعيدي نَ من الجور فى عُرَى[3] الأَحكام
والمصيبينَ باب ما أخطأَ النـــاسُ ومرسى قواعدِ الإسلام
والحماةُ الكفاةُ فى الحرب إن لف فِ ضِرامٌ وقودُه[4] بضرام
والغيوثُ الذين إن أمحل النـــاسُ فأَوَى حواضِن[5] الأَيتام

* * *

(١) الأغانى جـ ١٤ / ٢٥ .
(٢) الهوى : الميل . أجن : أضمر . أبدى : أظهر . وفروع الأنام . أرفعهم وأسماهم
(٣) الندى . الكرم . والعرى جمع عروة . والأحكام جمع حكم .
(٤) الحماة جمع حامى وهو الذاب عن الحرم .
(٥) الغيوث : جمع غيث وهو المطر والخصب . وأمحل الناس أجدبوا . والمحل : الجدب والقحط — حواضن الأيتام يريد بهن أمهات الأيتام .

ولما تطورت معتقدات الشيعة وظهرت آراؤهم فى الأئمة والقول بعصمتهم ، وأن الإمام يشفع لأمته يوم القيامة ، جاء ذلك واضحا جليا فى شعر الشعراء الذين بلغوا فى الغلو درجة بعيدة . ومثال ذلك قول ابن هانىء الأندلسى يمدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئتَ لا ماشاءت الأقدارُ ... فاحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ
وكأنما أنتَ النبيُّ محمدٌ ... وكأنما أنصارُك الأنصارُ
أنتَ الذى كانت تُبشرُنا به ... فى كُتبِها الأحبارُ والأخيارُ
هذا إمامُ المتقينَ ومن بهِ ... قد دُوِّخَ الطُّغيانُ والكفارُ
هذا الذى تُرْجى النجاة بحبِّهِ ... وبه يُحَطُّ الإصرُ والأوْزَارُ
هذا الذى تُجْدِى شَفَاعَتُهُ غدا ... حَقّا وتَحْمَدُ انْ تَرَاهُ النَّارُ
من آل أحمد كلُّ فخرٍ لم يكن ... ينمى إليهم ليس فيه نَفارُ
كالبدرِ تحتَ غمامةٍ من قسطل ... ضحيان لا يُخفيه عنك سِرارُ

وقد شاع مثل هذا المديح بين شعراء المسلمين . أنظر إلى المتنبي حين يقول :

لو كانَ علمك بالإله مُقَسَّما ... فى الناس ما بعثَ الإله رسولا
أو كان لفظك فيهمُ ما أنزل الـ ... ـتوراة والفرقان والإنجيلا

وانظر إليه حين يقول :

لو كان ذو القرنين أعْمَلَ رأيَهُ ... لما أتى الظلمات صِرْنَ شُموسا
أوْ كان صادَف رأسُ عازر سيفه ... فى يوم معركةٍ لأعيا عيسى
أو كان لُجُّ البحر مثل يمينه ... ما أنشقَّ حتى جاز فيه موسى

يا من نَلوذُ من الزَّمان بظلِّهِ أبداً ونطرُدُ باسمه إبليسا

* * *

وقد كثر مدح الشعراء لآل البيت كثرة مدهشة واشترك فى هذا المديح شعراء شيعيون وسنيون . وكان مديح آل البيت سببا فى ظهور المدائح النبوية ، والاستغاثة بآل رسول الله . وقد شغل هذا وذاك مكانا كبيرا فى عالم الشعر كما أن هذا المديح فى آل على دفع كثيرا من الشعراء إلى نظم القصائد فى مدح أبي بكر وعمر وعثمان فظهر مانراه من القصائد البكرية والعمرية والعثمانية .

(٢) الرثاء

كانت مجزرة كربلاء التى قتل فيها الحسين وما حل بالعلويين بعدها دافعا قويا للشعراء أنطقهم بكثير من القصائد التى تسيل العبرات ، وتذيب القلوب ، وتفتت الأكباد . ولا غرابة فى ذلك فهى صدى لتلك الدماء التى سفكت بغير حساب ، والأشلاء التى تناثرت وتركت على الأرض طعاما للطير ، والجثث التى أحرقت وذريت فى الهواء ، والأجسام التى صلبت وبقيت مصلوبة أياما تنبعث منها الروائح الكريهة ، والقبور التى هدمت وحرث مكانها وزرع . وقد كثر الشعر فى رثاء آل البيت كثرة هائلة ، وكله صادر من أعماق النفوس ، منبعث من قرارة الأفئدة . فكان للأدب العربى من ذلك ثروة لا تقدر . ومن أمثلة ذلك ما ينسب لزوجة الحسين .

إنَّ الذى كان نورا يُسْتَضَاءُ به بِكَرْبلاءَ قتيلٌ غيرُ مدفونِ

سِبطَ النبيِّ جزاكَ الله صالحةً عنَّا وَجُنِّبْتَ خُسْرَانَ الموازِينِ
قد كنتَ لِي جبلا صعبا أَلوذُ بِه وكنتَ تَصْحَبُنَا بالرَّحْمِ والدينِ
مَنْ لليَتَامَى ومَنْ للسائِلينَ ومَنْ يُغْنِي ويَأْوِى إليْهِ كلُّ مِسكِينِ
واللهِ لا أَبْتَغِى صهرا بِصهركُمُ حَتَّى أُغَيَّبَ بين الرَّمْلِ والطينِ

وقول السيد الحميرى :

أُمْرُرْ على جَـــدثِ الحسـ ـينِ فَقُلْ لأَعْظُمِهِ الزَّكِيهْ
آ أعظما لا زلتِ من وطفاءَ ســـاكنةٍ رَوِيَّهْ
وإذا مَررتَ بقـــبرِه فأطلْ به وقفَ المطيَّهْ
وابكِ المطهـــرَ للمطـ ـهرِ والمطهـــرةِ النَّقِيَّهْ
كبُكاءِ مُعْـــوِلَةٍ أَتَتْ يَومًا لواحـــدِها المنِيَّهْ

ومن جيد ما قيل فى رثاء آل البيت قصيدة دعبل الخزاعى التى يقول فيها :

مدارسُ[1] آياتٍ خلتْ من تِلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرُ العَرصاتِ
لآلِ رسولِ اللهِ بالخَيْفِ من مِنىً وبالرُّكْنِ والتَّعْرِيفِ والجَمَراتِ
ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ وحمزَةَ والسَّجَادِ ذى[2] الثفنات
ديارٌ عفاها كلُّ جَوْنٍ مُبَاكِرٍ ولم تَعْفُ للأَيَّامِ والسَّنَواتِ
قِفا نسألِ الدارَ التى خَفَّ أهلُها متى عهدُها بالصومِ والصلوَاتِ
وأينَ الأُلَى شَطَّتْ بِهم غُرْبَةُ النَّوى أَفانِينَ فى الآفاقِ مُفْتَرِقَاتِ

(١) معجم الأدباء جـ ١١ / ١٠٣ .

(٢) السجاد هو على بن عبد الله بن العباس سمى بهذا لكثرة السجود . والثفنات جمع ثفنة وهى ركبة الأنسان . يريد أن ركبتيه تأثرتا من كثرة السجود .

وهى طويلة ، وسنورد بقيتها حينما نتكلم عن أشهر شعراء الشيعة .

وقد روى أن كثيرا من شعراء الشيعة وأدبائها كانوا يجتمعون ويبكون وينوحون بالقصائد التى ينظمونها فى رثاء آل البيت . ومما بُكِيَ به قول أحد الشعراء .

بنى أحمدٍ قلبي لكم يَتَقَطَّعُ ... بمثلِ مُصابي فيكُمُ لَيس يُسْمَعُ
عَجِبْتُ لكم تَفْنَونَ قتلاً بِسَيْفِكم ... ويَسطو عليكم مَن لكُمُ كَانَ يَخْضَعُ
كان رسولَ اللهِ أَوْصَى بِقَتْلِكُمْ ... وأَجسامِكم فى كلِّ أرْضٍ تُوَزَّعُ

(٣) الهجاء

أكثر شعراء الشيعة من هجاء أعدائهم أمويين وعباسيين ، كما هجوا أبا بكر وعمر وعثمان هجاء مرا ، وقالوا فى ذلك كثيرا . ومن أشهر من عرَّض بهؤلاء فى شعره السيد الحميرى ، وهو شاعر عاش فى أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية . وكان شيعيا غاليا ، وقد ذكره صاحب الأغانى[1] بقوله « فكان يفرط فى سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، ويستعمل شعره فى قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره ، وهجره الناس تخوفا وتوقيا »

وكان مهيار الديلمى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى كثير الطعن فى هؤلاء الصحابة . ولكن شعره لم يهجره الناس كما هجروا شعر السيد

---

(١) الأغانى جـ ٧ / ٢٣٠ .

الحِمْيرىّ ، فوصل إلينا كل ما قاله فى هذا الباب . ومن أمثلة هذا الهجاء قول أحد شعراء الشيعة :

قدكنتُ أطمَعُ أن أموتَ ولا أرى ... فوق المنابرِ من أميَّةَ خاطِبا
فالله أخَّرَ مُدَّتى فتطاوَلتْ ... حتَّى رأيتُ من الزَّمانِ عَجائِبَا
فى كلِّ يومٍ للزمانِ خَطيبُم ... بَينَ الجميع لآلِ أحمد عَائِبَا

وقول مهيار :

حَملُوها يوم السقيفةِ أوْزا ... را تَخِفَّ الجبال وهِىَ ثِقَالُ
ثم جاءوا من بعدِها يَسْتَقِيلُو ... نَ وهيهاتَ عثرةٌ لاَ تُقَالُ
يا لها سوءةً إذا أحمـــدَ قَا ... م غدا بينهم فقـال وقالوا
ربعُ همِّى عليهمُ طَلَلٌ با ... قٍ وَتَبْلَى الهمومُ والأطلالُ

ومن قوله أيضا :

أألله يا قومُ ، يَقْضِى النبىُّ ... مطاعا فيُعْصى وما غُسِّلا
ويُوصى فنحرصُ دَعْوى عليـ ... ـهِ فى تركهِ دينَه مُهْملاَ
وَيجْتَمِعُونَ على زَعْمِهم ... ويُنْبِيكَ سعدٌ بما أشْكَلا
فيعقب إجماعهم أن يبيـ ... ـت مفضولهم يقدُم الأفضلا
وأن يُنزعَ الأمرُ من أهلِه ... لأن عليًّا له أهَّـلاَ
وسارُوا يَحُطُون فى آلِه ... بِظُلْمِهِمُ كَلْكلاً كَلْكلاَ

ومنها :

فيـــوم السَّقِيفةِ يا بن النَّبـ ... ـىِّ طرَّقَ يومَك فى كربَلا

وغصْبُ أبيكَ على حَقِّهِ وأمِّك حَسَّنَ أن تقتلا

* * *

ولما أكثر شعراء الشيعة من الطعن على الخلفاء الأول قام فريق من شعراء السنيين يدافعون عن أبى بكر وعمر وعثمان ويذودون عنهم ، فكان من هذا وذاك شعر كثير . قال بديع الزمان الهمذانى من قصيدة طويلة .

إمامُ من أجْمِع فى السَّقِيفَهْ قَطْعًا عليه أنه الخَلِيفَهْ
ناهِيكَ من آثارِه الشريفَهْ فى ردِّه كيدَ بنى حَنِيفَهْ
سلِ الجبالَ الشُّمَ والبحارَا وسائِلِ المنبرَ والمنَارَا
واستعلِمِ الآفاقَ والأقْطارَا من أظهر الدينَ بها شِعارَا
ثم سلِ الفرسَ وبيتَ النارِ من الذى فَلَّ شبا الكفارِ
هل هذه البيضُ من الآثارِ إلا لثانى المُصطَفَى فى الغارِ

وهى طويلة فليرجع إليها القارىء إن شاء فى الجزء الثانى من معجم الأدباء طبع القاهرة[1] .

(٤) الدفاع عن حق على

كان الدفاع عن حق عليّ وآل بيته فى الخلافة من أهم الأمور التى شغلت شعراء الشيعة ، فتناولوا هذا الموضوع وقالوا فيه كثيرا . دافعوا عن هذا الحق دفاعا مذكورا ، ولم يتركوا حجة ولا دليلا يثبت حقه فيها إلا أتوا به مفصلا مشروحا ، ولم يدعوا برهانا ولا بينة تؤيد رأيهم ،

(١) ص ١٩٧ ج ٢ .

وتدعم مذهبهم إلا ذكروها ونوهوا بها . ويعتبر الكميت أول شاعر شيعى لجأ فى الدفاع عن حق على إلى الدليل والبرهان ، وقد قال عنه الجاحظ « إنه من أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج » ومن قوله :

وقالُوا ورِثْنَاها أَبانا وأمنا ... وما وَرَّثَتْهم ذاك أُمٌّ ولاأَبُ
يرونْ لهم حقًّا على الناسِ واجبًا ... سَفاها وحقُّ الهاشميين أوجَبُ
ولكن مواريثُ ابن آمنةَ الذى ... به دانَ شرقيٌّ لكم ومُغَرَّبُ

ومنها :

يقولون لم يُورَث ولولا تُراثُه ... لقد شركتْ فيه بَكيلٌ وأَرْحَبُ
وعكٌّ ولخمٌ والسَّكونُ وحميرٌ ... وكندةُ والحيَّانِ بكرٌ وتغلبُ
ولانتشلت[1] عضوين منها يُحَابُرٌ ... وكان لعبدِ القيس عضوٌ[2] مؤرَّبُ
ولانتقلتْ من خندفٍ فى سواهُمُ ... ولاقتدَحت قيسٌ بها ثم أثقبوا
ولا كانت الأنصارُ فيها أدلةً ... ولاغُيِّبا عنها إذا الناس غُيَّبُ
هم شهدوا بدرا وخيبرَ بعدها ... ويومَ حُنَيْنٍ والدماءُ تَصَبَّبُ
وهم رأَموها[3] غيرَ ظئرٍ[4] وأشبلوا ... عليها بأطراف القنا وتحدَّبوا
فإنْ هى لم تصلُح لقومٍ سواهُمُ ... فإنَّ ذَوى القُرْبَى أَحَقُّ وأقربُ
فيالكَ أمرا قد اشتَتْ وجوهُه ... ودارا ترى أَسبابَها تَتَقَضَّبُ
تبدلَتِ الأَشرارُ بعد خِيارِها ... وجُدَّ بها من أمةٍ وهى تَلْعَبُ

فأنت ترى أن الكميت قد ألف حجة قوية فهو يقول : لو لم يورث

(١) أخذت نصيبين .
(٢) عضو مؤرب نصيب تام .
(٣) قبلوا دعوة الرسول .
(٤) الظئر التى تعطف على غير ولدها .

النبى لكانت الخلافة شائعة فى قبائل العرب ، ولما كان هناك معنى للقول بأن الخلافة فى قريش . فإن قلتم بأن الخلافة فى قريش ودفعتم الأنصار عنها بهذه الحجة ، فلا معنى لتقديم قريش إلا لقرابتها من الرسول ، وإذا كانت قرابتها هذه هى الحجة التى تستند إليها فالأقرب أولى . فبنو هاشم أولى من بنى أمية ، وبنو علىّ أولى بنى هاشم . وهذه الحجة التى أتى بها الكميت ليست جديدة ، ولا هى من اختراعه ، بل مر بنا ذكرها حينما رأينا عليا يجادل أبا بكر وعمر ، ويقول لهما : أنا أحتج عليكما بمثل ما احتججتم على الأنصار . ولكن الكميت أول من صاغ هذه الحجج فى الشعر وأتى بها فى القصيد .

* * *

وقد ترتب على مثل هذا الشعر ظهور نوع من النقائض بين شعراء العلويين والعباسيين ، ترى فيها الحجة تدفع الحجة ، والبرهان يبطل البرهان . واجتهد كل فريق فى الاستناد إلى القرآن والحديث والسنة والإجماع لتأييد وجهة نظره . ومثال ذلك قول أحد شعراء العباسيين مخاطبا الرشيد :

يا ابن الأئمةِ من بعد النبى ويا ابـــنَ الأوصياءِ أقر الناسُ أو دفعوا
لولا عَدِىٌّ(١) وتيمٌ(٢) لم تكن وصلت إلى أميـــة تَمْريها وتَرْتضع
وما لآلِ علىٍّ فى إمارتكم ومالهم أبدا فى إرثكُمْ طمعُ

(١) قبيلة منها عمر بن الخطاب .
(٢) قبيلة منها أبو بكر الصديق .

يا أيها الناسُ لاتعزُبْ حلومكمُو ولا تُضِفْكم إلى أكنافِها البِدَعُ
العَمُّ أَوْلى من ابن العم فاستَمِعوا قولَ النَّصيحةِ إنَّ الحقَّ مُسْتَمَعُ

وقول شاعر آخر :

ألا لله دَرُّ بنى عـــلىٍّ ودَرٌّ من مَقالتهم كثيرُ
يسمون النبىَّ أبا ويأبى من الأحزابِ سطرٌ بل سطورُ

يشير الشاعر هنا إلى آية الأحزاب « ما كان محمـــد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله» . وكان من أكبر دعاة العباسيين فى الشعر مروان بن أبى حفصة . لقد مدح المهدى والرشيد ، ونال جوائزهما العظيمة ، وله قصيدة مشهورة مدح بها المهدى عندما عقد البيعة لابنه الهادى :

يا ابن الذى ورثَ النبىَّ محمدا دونَ الأقارب من بنى الأعمامِ
الوحىُ بين بنِى البناتِ وبينكم قَطع الخصامَ فلاتَ حينَ خصامِ
ما للنساءِ مع الرجالِ فريضةٌ نَزَلتْ بذلكَ سورةُ الأنْعَامِ
خلُّوا الطريقَ لمعشرٍ[1] عاداتُهم حَطمُ المناكِب كلَّ يومِ زِحامِ
إرضَوْا بما قسم الإلهُ لكم بهِ ودَعُوا وراثة كُلِّ أصيدَ حامِ
أنَّى يكونُ وليس ذاكَ بكائنٍ لبنى البناتِ وراثةُ الأعمامِ
ألغى سهامَهم الكتابُ فحاوَلوا أن يشْرعوا فيها بغيرِ[2] سِهامِ

(١) يريد بالمعشر العباسيين . وحطم المناكب يوم الزحام كناية عن غلبهم لخصومهم يوم التنافس فى المجد .
(٢) أى أن ينالوها دون أن يكون لهم نصيب مفروض فيها .

ظفِرَتْ بنو ساقِى الحجِيج بحقّهم وغُرِرْتمُ بتوَهُّم [١] الأَحْلام
عقِدتْ لموسى بالرَّصافةِ بيعة شَدَّ الإلهُ بها عُرَى [٢] الإسْلامِ
موسى الذى عرفتْ قريشٌ فضله ولها فضِيلَتُها على الأَقْوَامِ

قيل إن أشد بيت كان على الشيعة قوله :

أَنى يكونُ — وليس ذاك بكائنٍ — لبنى البناتِ وراثةُ الأعمامِ [٣]

وقد غاظهم هذا البيت حتّى لعنوه من أجله ، وردوا عليه بقولهم :

لِمَ لا يكونُ وإنَّ ذاك لكائنٌ لبنى البنات وراثةُ الأعمامِ
للبنْتِ نصفٌ كاملٌ من مالِهِ والعَمُّ متروك بغيرِ سهامِ
ما للطليقِ وللتراثِ وإنَّما صلى الطليقُ مخافةَ [٤] الصّمْصام

قال أبو الفرج « قال صالح بن عطية الأضجم وهو شيعى ، لما قال مروان :

أَنى يكونُ وليسَ ذاك بكائنٍ لبنِى البناتِ وراثةُ الأَعمامِ

لزمته وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك ، وما زلت أُلاطفه وأبره ، وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا ، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بى ، ولم أزل أطلب غِرةً حتى مرض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقته حتى مات . »

(١) ساقى الحجيج هو العباس بن عبد المطلب كان يسقى الحجاج بمكة فى الجاهلية .
(٢) موسى الهادى ابن الخليفة المهدى .
(٣) وراثة الأعمام : يريد وراثة كوراثة الأعمام .
(٤) الطليق هو العباس أسر مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه .

ولقد كان مروان من أحب الشعراء إلى الرشيد لأنه كان يصل مدح الرشيد بالتعريض بالشيعة والطعن فيهم . وقد اضطر الشعراء الآخرون إلى مجاراة مروان فى طريقته حتى يظفروا بمثل ما كان يظفر به من العطايا والهبات .

(٥) ذكر مناقب آل البيت

أكثر شعراء الشيعة من التغنى بمناقب على وآل بيته فى شعرهم . فكانوا كلما سمعوا منقبة قالوا فيها شعرا ولو كانت هذه المنقبة مما لا يقبله العقل . وتعتبر قصائدهم التى نظموها فى هذا الموضوع من الشعر القصصى : لأنك تجد الشاعر يسرد لك عجيبة من عجائب على ، أو عادة من خوارق عاداته ، أو أمرا غريبا وقع له من شأنه أن يرفع من مقام على أمام الناس ويجعله سيد الأوصياء بغير شك ولا ريب . وقد كان السيد الحميرى من أكثر شعراء الشيعة ذكرا لمناقب على . قال صاحب الأغانى[1] « كان السيد الحميرى يأتى الأعمش — وهو عالم كوفى ثقة فى الأخبار — فيكتب عنه فضائل على رضى الله عنه ، ويخرج من عنده ويقول فى تلك المعانى شعرا » .

ثم قال « فخرج[2] ذات يوم من عند بعض أمراء الكوفة ، وقد حمله على فرس ، وخلع عليه ، فوقف بالكناسة — محلة بالكوفة — ثم قال : يا معشر الكوفيين ، من جاءنى منكم بفضيلة لعلى بن أبى طالب لم أقل فيها شعرا أعطيته فرسى هذا وما على . فجعلوا يحدثونه وهو ينشدهم » .

(١) و (٢) الأغانى ج ٧ .

من ذلك أنه سمع رجلا يروى عن النبى أنه قال لعلى بن أبى طالب : إنه سيولد لك بعدى ولد ، وقد نحلته اسمى وكنيتى فقال فى ذلك قصيدة طويلة نذكر منها .

ألم يبلُغْكَ والأنباءُ تنمِى ... مقالُ محمد فيما يُؤَدِّى
إلى ذِى علمِه الهادِى علىٍّ ... وخولةُ خادمٌ فى البيتِ تردى
ألم ترَ أن خولةَ سوف تأتى ... بوارى الزّند صافِى الخيمِ نَجْدِ
يفوزُ بكُنْيتى واسْمى لأنّى ... نحلتُهماهُ والمهدىُ بعدِى
يُغَيَّبُ عنهمُ حتى يقولوا ... تضمنه بطيْبَةَ بطنُ لحدِ

* * *

ومن ذلك أيضا أنه سمع محدثا يقول إن النبى كان ساجدا فركب الحسن والحسين على ظهره ، فقال عمر رضى الله عنه : نعم مطيكما ! فقال النبى ، ونعم الراكبان هما ، فقال السيد فى ذلك :

أتى حسنا والحسينَ النبى ... وقد جلسا حَجْرةً[1] يلعبانِ
ففــداهما ثم حيــاهُما ... وكانَا لديهِ بذاكَ المكانِ
فراحَا وتحتَهمــا عاتِقاهُ ... فنِعْم المطيـة والراكبانِ
وليــدانِ امهما برةٌ ... حَصانٌ مطهرةٌ للحَصانِ

(١) ناحية .

(٦) النقائض

وهى القصائد التى تبادلها شعراء الفريقين من الشيعيين وخصومهم وكانت مملوءة بالشتائم والسباب ، مفعمة بالألفاظ النابية التى تنفر منها الأسماع . وهى وإن كانت تدخل ضمن الهجاء ، إلا أنى آثرت أن أفردها مكانا خاصا . لأن الهجاء عند الشيعة تناول الأموات أكثر من الأحياء : تناول أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة بالسب واللعن والتكفير ، ورميهم بالغدر والخيانة واغتصاب حق على فى الخلافة . أما هذه النقائض فكانت هجاء متبادلا بين شاعر وشاعر يطعن أحدهما فى أخلاق الآخر وعرضه وشرفه وحسبه ونسبه ، ويتهمه بالفسق والفجور فيرد عليه الآخر ردا فيه فحش وفيه إقذاع . ومن أمثلة ذلك قول كثير وكان يدين بالرجعة

وسنطٌ لا يذوق الموتَ حتى ... يقودَ الخيلَ يقدُمها اللواء
تغيَّبَ لا يُرَى فيهم زمانا ... بِرَضْوَى عنده عَسَلٌ وماء

فأتى على بن الجهم وقال[1] :

ورافِضةٌ تقولُ بِشِعْبِ رَضْوى ... إمام ، خابَ ذلك من إمام
إمامٌ من له عشرون ألفا ... من الأتراكِ مُشرعَة السِّهامِ

فرد عليه البحترى بقوله :

إذا ماحُصِّلتْ عُليا قُريشٍ ... فلا فى العيرِ أنتَ ولا النفير
وما رُغَثاؤُك الجهم بن بدر ... من الأَقْمارِ ثَمَّ ولا البدورِ

(١) الأغانى ج ١٠/٢٠٧ .

ولو أعطاكَ ربُّك ما تَمنَّى لزادَ الخلقَ فى عِظَمِ الأُيُورِ
علامَ هجَوْتَ مجتهدا عليا بما لَفَّقْتَ من كَذِبٍ وزُورِ
أمالك فى استِك الوجعاءِ شُغْلٌ يَكُفُّكَ عن أذى أهل القبور

* * *

كذلك امتازت النقائض بأن الشاعر كان يقول القصيدة ، فسرعان ما ينبرى شاعر آخر للرد عليه . ومثال ذلك قول أحد شعراء طلحة :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجملْ نُنازِل الموتَ اذَا الموتُ نزلْ
نَلْعَى ابنَ عفّان بأطرافِ الأَسلْ رُدُّوا علَيْنَا شيخَنا ثم بَجَلْ
الموتُ أحلَى عندَنا من العَسلْ لا عارَ فى الموتِ إذا خان الأجلْ
إن عليا هو من شرِّ البدلْ إن تعدلوا بشيْخِنَا لا يعتدلْ

فأجابه رجل من أنصار على :

نحنُ قَتَلْنَا نعثلاً فيمن قتلْ أكثرَ من أكثرَ فيهِ أو أقلْ
أنَّى يُرَدُّ نعثلٌ وقد قُتِل نحن ضربنا وسطه حتى انجزلْ
لحكمه حكم الطواغيت الأولْ آثرَ بالفيءِ وجافَى فى العملْ
فَأَبْدَلَ الله به خيرَ بدلْ إنى امرؤ مستقدِمٌ غير وَكِلْ

* * *

ومن هذا النوع أيضا قول الوليد بن عقبة يخاطب أنصار على متهما إياهم بالاستيلاء على أسلحة عثمان بن عفان وهو :

بنى هاشم رُدوا سلاح ابن أختكمْ ولا تنهبوه لا تَحِل مناهِبُهْ

بنى هاشمٍ كيف الهوادَة بيننا وعنـــد على درعه ونَجائِبُهْ
قتلتم أخى كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازِبُه

قال ابن أبى الجديد[1] « فأجابه عبدالله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها :

فلا تسألوا ما سَيْفكم إنَّ سيفكم أُضِيع وألقاهُ لدى الرَّوْع صاحِبهْ
شَبَّهْتَهُ كِسرَى وقد كان مثله شَبيها بِكِسْرَى هَدْيه وضرائِبه[2]

أى كان كافرا كما كان كسرى كافرا »

ومنها :

وكان وَلىّ العَهْدِ بعـــد محمدٍ علىٌّ وفى كلّ المواطِن صاحِبُهْ
علىٌّ ولى الله أظهر دينـــه وأنتَ مع الأَشْقين فيمن تحاربه
وقد أنزلَ الرحمنُ أَنك فاسِقٌ فما لَك فى الإسْلاَمِ سَهْمٌ تُطَالبُه

(١) شرح ابن أبى الحديد ج ١/٩٠ .
(٢) أستبعد صدور هذا من ابن أبى سفيان — المؤلف .